التربية والتعليم

وماذا كسبنا من السيكلوجية الحديثة

ربما كان الكتاب الصغير " أحاديث إلى المعلمين " الذى ألفه وليم جيمس قبل نحو أربعين سنة أول المحاولات المباشرة لتطبيق المبادئ السيكلوجية الحديثة على التربية والتعليم. فان المؤلف هنا يحرؤ على أن ينظر نظرا سيكلوجيا بكرا لعقلية المعلم والتلميذ. وهو مع المعارف القليلة التى كانت فى متناوله يبحث التربية والتعليم بحثا جديدا نستطيع أن نعرف قيمته حين نقابل بينه وبين كتاب هربرت سبنسر " التربية " الذى ألفه قبل كتاب وليم جيمس بنحو عشرين سنة . وقد كان هربرت سبنسر فذا فى الإحاطة بالتقدم العلمى فى عصره . ولكن السيكلوجية لم تكن قد فتحت أبوابها وبسطت ميادينها الى حوالى سنة ١٩٠٠ ولذلك نقرأ كتابه فنحس أنه قديم ، فى حين نحس ونحن نقرأ كتاب وليم جيمس أننا نتنسم هواء جديدا وأنه قد فتح لنا كوة نطل منها على ميادين رحبة جديدة فى أساليب التعليم وأخطاء التربية .

والمقابلة بين هذين الكتابين تدلنا على حداثة السيكلوجية واستخدام النظر السيكلوجى لألوان النشاط الإنسانى . فاننا عند ما نجد المئات من الكتب التى تعالج التعليم والصناعة والتجارة والعائلة والمجتمع والجريمة والنبوغ من الزاوية السيكلوجية نكاد ننسى أن هذا العلم هو ابن هذا القرن وأن القابلة التى ولد على يديها هى فرويد .

واسم فرويد يثير ألوانا مختلفة من الحماسة فى الإعجاب به والنقد له . ونحن فى طور التمحيص لكثير من نظريته التى غمرت العالم بها عبقريته السخية . وليس شك فى أن الزبد سيذهب جفاء ثم يبقى بعد ذلك كثير مما ينير ويفيد .

ولم يؤلف فرويد كتابا خاصا فى التربية والتعليم ، ولكنه أكد القيمة الكبيرة لسنوات الطفولة الأولى وما تحدثه من مركبات قد تعصف بحياة الإنسان فى المستقبل . فان جوهر السيكلوجية الفرويدية ينحصر فى أن ما نعانيه فى شبابنا أو كهولتنا من انحرافات إنما يرجع الى أخطاء أوقعنا فيها أولئك الذين تولوا تربيتنا فى السنوات الأولى من أعمارنا . والعقل الباطن عند فرويد هو العقل الذى يرجع القهقرى الى أيام الطفولة ويتغذى بأوهامها ومخاوفها وأمانيها ويسلك السلوك الطفلى وقت الانحراف أو الزيغ .

وزاد هذا التأكيد لقيمة السنين الأولى للطفولة تلميذ فرويد الذى انشق عليه وهو ادلر الذى عالج التربية معالجة سيكلوجية فى ضوء التحليل النفسى أو " السيكلوجية التحليلية "

وانتفع جميع المربين بهذا الاتجاه الجديد . وأصبح للآباء والبيت والشارع قيمة جديدة فى تكوين الأخلاق وتنمية الشخصية . وليس فى العالم المتمدن مدرسة حديثة تهمل بحث هذه البيئة الأولى عندما تجد زيغا أو انحراف فى أحد الصبيان. ومعالجة الزيغ تقوم على معالجة الأخطاء التى وقعت فى السنوات الخمس أو الست الأولى فى حياة الصبى .

وبهذه الحقيقة الأولى خطت التربية خطوة واسعة إلى الأمام. فاننا جميعا نعرف الآن أن التربية يجب أن تبدأ منذ أن يولد الطفل، وأن العادة النفسية التى يتعودها فى سنيه الأولى قلما يمكن فى تغييرها بعد ذلك إلا بمجهود عظيم . ومن ضرورة إيجاد الوسط الحسن للأطفال وسط العائلة السعيدة التى لا يتشاجر فيها الآباء ، والبيت النظيف المرتب ، والاتجاهات الأخلاقية والاجتماعية الحسنة التى يأخذها الطفل من أبويه ومن سائر من فى البيت من إخوة وخدم وأصدقاء وجيران . فنحن نجد مغزى جديدا فى الأم التى تخيف أولادها بالعفاريت والظلام ، بل فى الأم التى تخاف لأن الخوف يعدى . ونجد مغزى جديدا فى الأب الصارم الذى يخشاه ابنه فينشأ خجولا . والخجل هنا خوف . فهو قد يبلغ الشباب ولكنه يحمر ويرتعش عندما يقابل غريبا أو يلقى رئيسا لأنه يجد فى جميع هؤلاء أبا قد ضربه وقسا عليه فى الصغر . ثم هذا الجبن يلازمه فى أشياء أخرى فهو لا يقدم، ولا يقتحم، ولا يرجى منه ابتكار تجارى أو صناعى يحتاج إلى الاختلاط بالناس .

وإلى سنى الطفولة يعزى كثير من الزيغ . فالطفل المجرم إنما قد اكتسب هذا الاتجاه من البيئة الأصلية التى نشأ فيها . فإما أنه قد عاش بين أبوين زائغين، أو أنه قد تشتت ذهنه بأخلاف القائم بينهما حتى جعل الشارع الشئ ملعبه، ومكان اقتحامه وتجاربه الأولى فى الحياة لأنه لم يجد الراحة الجسمية أو الرفاهية النفسية فى البيت. وجميع الأبحاث السيكلوجية الحديثة تؤدى إلى نتيجة حاسمة هى أن البيت الحسن أساس للمجتمع الحسن وأنه المدرسة الأولى لتخريج الرجال وتكوين الشخصيات. ورياض الأطفال هى إحدى ثمرات السيكلوجية الحديثة التى أوضحت قيمة اللعب والتوسل به إلى استنباط ذكاء الطفل وتكشفه. فان من العريب أن تستمتع أطفال الحيوان باللعب وتتدرب به على ما سوف تعانى فى مستقبل عمرها من تجارب فى حين كان المربون فى العصور الماضية يعاملون الطفل كأنه رجل، وكأن اللعب يجب أن يقاطع ويبعد عن حياته . وكان التأكيد فى أساليب التربية القديمة على "التأديب" وأكبر معداه هنا العقاب . ولكن السيكلوجية الحديثة تكاد تقاطع العقوبة وتجعل الحب أساس التربية فالتلميذ الذى يعاقب لإهماله درسه سيعاقب ويعاقب دون أن يرجى إصلاحه . ويدل الاختبار على أن المتخلفين فى كل فرقة يبقون كذلك على الرغم من تكرار العقوبات . ويدل على أن العلاج يجب أن يتخذ أسلوبا آخر هو البحث عن الأسباب لهذا التخلف . فقد يرجع إلى نقص

ورائى فى الذكاء أو إلى أن التلميذ يكره معلمه وينطوى على عناد ومعاكسة لكل مايلقيه عليه من شرح أو بيان .

وبحث الذكاء من الأبحاث الجديدة التى لاتزال عرضة للمناقشة الحرة . فهناك من يكبر شأن الوراثة ، كما أن هناك من يكبر شأن الوسط . ولكن هذا البحث أدى إلى نتائج فريدة فى اختيار الدراسات العالية والتوجيه الثقافى . فنحن نعرف أن متوسط الذكاء عند الناس هو رقم اصطلاحى نعبر عنه بـ ١٠٠ ولكن التفاوت عظيم بين الأبله الذى لايصل سوى ٢٥ والعبقرى الذى يزيد على ١٥٠ ثم هناك ميول خاصة أو مهارات خاصة فى نوع الذكاء يمكن الاستدلال عليها والاسترشاد بها فى توجيه الصبى أو الشاب ليس للدراسة فقط ، بل للحرفة .

وقد أوضحت السيكلوجية الحديثة قيمة الحافز الذى يعوض من الذكاء الناقص . وقد ذكرنا مثال الصبى يكره المعلم فيكره المادة التى يدرسها فيتخلف فيها ، والصبى يحب معلمه فيقبل عليه حتى ينبغ فى مادته . وقد تأيدت هذه الحقيقة فى الحرب الماضية حين جندت الولايات المتحدة الأمريكية شبابها وأرسلتهم إلى ميادين الحرب فى أوربا . ففى تلك السنين حتاج الآباء الى مراسلة أبنائهم للاطمئنان عليهم ، ولكنهم كانوا أميين من أولئك المهاجرين الذين لم يعنوا بتعلم القراءة والكتابة . على أن الحافز هنا كان قويا ، فتعلموا القراءة والكتابة بأسرع مما يتعلم الصبيان مع أنهم كانوا قد تجاوزوا الخمسين والستين .

وهناك مدرسة "السلوكية" التى تقول بأن التفكير كلام صامت . ومع أن التسليم ليس عاما بهذه النظرية فان قيمتها فى تعليم اللغات ليست صغيرة . لأننا قد وصلنا إلى الاقتناع بأن التفكير الحسن يعنى اللغة الحسنة ، وأن اللغة العظيمة هى أعظم المؤسسات البشرية . ولذلك كبرت مكانة اللغات فى التعليم .

وليس مما يستصغر أن تدلنا السيكلوجية الحديثة على أمثل الطرق للاستذكار . فقد أثبتت أن تلاوة الفصل الكبير تلاوة كاملة فى فترات متباعدة خير فى الاستذكار من تجزئته وحفظ كل جزء منه على حده فى فترات قريبة .

ولو شئنا أن نلخص فى كلمات قليلة النتائج العظيمة التى اهتدت اليها السيكلوجية الحديثة فى التربية والتعليم لقلنا إنها تنحصر فيما يلى :

١ — الإكبار العظيم من شأن السنوات الخمس أو الست الأولى فى حياة الطفل لأنها من حيث التربية تساوى سائر العمر كله بل قد تزيد عليه .

٢ — قيمة العائلة الحسنة فى التوجيه وتكوين الشخصية وغرس الأخلاق .

٣ — معاملة الطفل بالحب .